اعداد: م.م نور خليف محمود // جامعة الموصل // كلية الفنون الجميلة // المادة تاريخ الفن القديم

وادي الرافدين

ان من اكثر الأمور أهمية في دراسة تاريخ حضارة وادي الرافدين هو التعرف على تاريخها الفني اذ إن تتبع الأعمال الفنية وتطورها يقودنا إلى معرفة الخلفيات الفكرية لتلك الأعمال الفنية والتي تكون رؤية واضحة عن طبيعة العمل الفني من خلال التعرف على بيئة حضارة وادي الرافدين ، اذ تقسم البيئة الى بيئة طبيعية واخرى ثقافية ، ونقصد بالبيئة الطبيعية ما تشغله البيئة من طبيعة الارض وخصوصيتها والامطار الساقطة فضلا عن درجة الحرارة ومصادر الثروة الطبيعية من نباتات وحيوانات اما النوع الثاني، أي البيئة الثقافية هي ما يسود المجتمع من نظام اجتماعي او نشاط اقتصادي فضلا عن الطقوس والمعتقدات الدينية وتعد هي الاخرى مهمة للفكر الحضاري ، فلل بيئة اثر واضح في حياة الإنسان، وصياغة أفكاره ونتاجه المعرفي والذي بمجمله يكون البنية الحضارية لان الإنسان يأخذ مادة حضارته الأساسية من بيئته التي يعيش فيها. وقد تحفزه في ذلك الظروف الطبيعية وتدفعه إلى العمل والإنشاء والابتكار، او تثنيه وتحرمه من التطلع الى كل ما هو جديد ، فالسيطرة على الظروف الطبيعية هي عملية تاريخية طويلة ومتواصلة تتخذ اوجهاً مختلفة تبلورت بالنتيجة في معتقدات وأعمال تجسدت فيها جمالية محددة، لتصبح صورا مجسدة للفن في عصور مختلفة [١].

يعتبرالانسان هو العامل الاساسي والمهم لاستكمال تلك الحضاره من خلال طرح نتاجاته على هيئة تفاعل بينه وبين بيئته [٢]. ومما لا شك فيه فأن للبيئة الطبيعية اثر كبير وفعال في طبع الحضارات العراقية القديمة بطابع خاص ومميز، بل قد يصعب احيانا تفسير بعض المقومات الحضارية العراقية دون الاخذ بنظر الاعتبار الظروف الطبيعية التي تهيأت للانسان ودفعته الى اتباع سلوك معين دون غيره وقد تبرز هذه الظاهرة على وجه الخصوص وتساعدنا في تفسير كثير من المعتقدات الدينية والتقاليد الاجتماعية والنظم الاقتصادية والفنية[٣].

---

(١) البياتي، عبد الحميد فاضل. هيئة المنحوتات البشرية المدورة في العراق القديم، رسالة دكتوراه (غير منشورة) مقدمة الى كلية الفنون الجميلة جامعة بغداد ١٩٩٧، ص١٠.

(٢) طه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة. ج١ الوجيز في تاريخ حضارة وادي الرافدين ص٨.

(٣) احمد مالك الفتيان، د.عامر سليمان، محاضرات في التاريخ القديم، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة الموصل ١٩٧٨، ص٢٨.

ان حضارة وادي الرافدين تحتل موقعا جغرافيا مهما اثر في سير تاريخه الطويل سواء كان ذلك من ناحية الطقس والمناخ والزراعة والحياة الاقتصادية اما من ناحية تركيب سكانه التاريخي واتصاله بالاقطار الاخرى والاقوام المجاورة الى غير ذلك مما للموقع الطبيعي من نتائج مؤثرة في سير التاريخ والحضارة[٤].

لذا تتميز ارض حضارة وادي الرافدين وبيئتها بمميزات قلما توفرت لغيرها من الحضارات فهي تتوسط بحرين عظيمين كان لهما شان كبير في نشوء وازدهار الحضارات القديمة، وهما البحر الاسفل (أي الخليج العربي)، والبحر الاعلى (أي البحر الابيض المتوسط) اضافة الى ذلك تتوفر في بلاد مابين النهرين مصادر مائية غزيرة متمثلة في نهري دجلة والفرات وروافدها الممتدة من المرتفعات الشمالية والشمالية الشرقية ، والتي تغذيها الامطار الموسمية، وكذلك وجود المستنقعات المائية والاهوارالتي جزأت البلاد الى اكثر من جزء واحد فكان ذلك له الاثر الفعال في ظهور اكثر من ادارة مركزية واحدة في هذه المنطقة أي (دويلات المدن السومرية) منذ مطلع الالف الثالث قبل الميلاد[٥].

كذلك امتازت ارض وادي الرافدين بكونها ارضا مفتوحة امام المنطقة الجبلية الواقعة في الجهة الشرقية (ايران) وامام الصحراء الواسعة الممتدة الى داخل شبه الجزيرة العربية الواقعة الى الغرب من وادي الرافدين[٦] مما جعلها محط انظار الاقوام التي استقرت فيها منذ قديم العصور وذلك من خلال الهجرات المستمرة منذ عصور ما قبل التاريخ بالاضافة الى حملات الغزو التي كانت تشن على هذه الحضارة (حضارة وادي الرافدين) منها هجوم الاقوام الكوتيه على بلاد سومر واكد، وهجوم الاقوام الكاشية على بلاد بابل وسيطر الاقوام الحورية على بلاد اشور وعلى ضوء ذلك يجب النظر الى تركيب سكان وادي الرافدين، ويؤكد الاستاذ (احمد سوسه) ان معظم اراضي ما بين النهرين كان يسكنها الساميون عندما نزح السومريون الى ارض الرافدين مستدلا بذلك باللقى الاثرية التي عثر عليها في منطقة (تل العبيد) في جنوب العراق وعلى بعد ستة كيلو مترات من غرب (اور) الواقعة على مقربة من مدينة الناصرية، وتمثلت هذه اللقى على شكل فخاريات امتازت بشدة حرقها وصلابتها ويقدر تاريخها بنحو (٤٠٠٠-٣٥٠٠ق.م) وقد عرف بفخار العبيد ودور اريدو (حاج محمد) وتقع اقصى الجنوب على نحو ٤٠كيلومتر الى الغرب من مدينة الناصرية وكذلك من خلال اللقى الاثرية التي تعود الى (تل حلف) (كوزانا القديمة) والذي يقع في شمال سورية على خمسة

---

(٤) طه باقر، المصدر السابق، ص٢٢.

(٥) احمد مالك الفتيان، د.عامر سليمان. محاضرات في التاريخ القديم، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي جامعة الموصل، ١٩٧٨، ص٣٧.

(٦) احمد مالك الفتيان د.عامر سليمان، المصدر السابق، ص٣٥.

كيلومترات جنوب غربي رأس العين قرب منبع الخابور، وقد تميزت هذه الفخاريات بزخارفها الهندسية ويقدر تاريخها بـ(٤٩٠٠-٤٣٠٠ق.م) أي قبل انبعاث الحضارة السومرية بعده سنين، وهذا ما يؤكد ان السومريين لم يكونوا اقدم المستوطنين في وادي الرافدين بمعنى ان هناك شعبا ذا حضارة سبقهم في الاستيطان وفي مقدمتهم الساميون. ولكن يبدو ان الطرفين قد عاشا في وادي الرافدين جنبا الى جنب بسلام وسادت بينهما روح المودة والتآلف متعاونين معا في المجالات الفكرية والاجتماعية والسياسية جميعها لصنع حضارة مشتركة على ارض سومر واكد [٧].

(٧) البصمجي، فرج، كنوز المتحف العراقي، وزارة الاعلام – السلسلة الفنية ١٧، مديرية الاثار العامة. بغداد، ص١٩-١٨.